المفارقة المنظورية

د. جمال الجزيري

المفارقة المنظورية عبارة عن تباين في المنظور، سواء أكان ذلك المنظور يتعلق بعملية السرد ذاتها أو بنظرة الشخصيات لبعضها البعض. بالنسبة للمنظور السردي، قد يبدو لنا للوهلة الأولى أنه يندرج تحت نوع معين من أنواع المنظور الذي يتم بناء عليه سرد الحدث، ونكتشف من خلال التحليل المتأني للومضة وما يكشف تأويلُها أنه ينتمي لنوع آخر. ففي ومضة "حضن" ليوسف الكميتي على سبيل المثال، ننظر للمنظور الذي يتم من خلاله نقل أحداث العالم السردي المتخيَّل على أنه منظور خارجي إذ يمكن لأي شخص يقف في المكان أن يرصد الحدث من نفس الزاوية التي قام الراوي برصد الحدث منها. ولكننا نكتشف أن مكان الحدث ذاته – "تحت اللحاف" – لا يسمح بوجود أي راصد ولا يمكن أن يقوم بنقل الحدث ذاته إلا الشخصية التي يتم الكلام عنها بضمير الغائب في الومضة. كيف يكون شخصية وغائبة وفي الوقت ذاته تقوم بعملية سرد الحدث الذي لا يمكن لأحد غيرها أن يرصده؟ إذن هو منظور خارجي في ظاهره داخلي في باطنه، فالشخصية يتم الحديث عنها بضمير الغائب في حين أنها تمثل الراوي ذاته وهو راو ينظر إلى نفسه على أنه غائب أو آخر بأن يُمَوْضِعُ ذاته، أي يحوّلها إلى موضوع من خلال استحضار مشهد من الذاكرة خاص به ويصوّره على أنه مشهد يخص

شخصا آخر. وتتمثل هذه المفارقة المنظورية هنا أيضا في أن زمن السرد غير زمن الحدث، فمن الواضح أن زمن الحدث ينتمي للماضي البعيد وزمن السرد ينتمي للحاضر. ويقوم الراوي باستعمال زمن المضارع لنقل الحدث البعيد من خلال نقل مشهد لا ينمحي من الذاكرة – وهو مشهد ينتمي للماضي بطبعه – ولكن الراوي ينقله كما لو كان يحدث مباشرة أمام أعيننا. أما عندما تتعلق المفارقة المنظورية بالشخصيات داخل الومضة، فتتمثَّل في الاختلاف الماثل أو الكائن بين منظوريّ شخصيتين في النص، فالشخصية الأولى قد تنظر إلى نفسها ووضعها ولما تقوم به في السياق الأصغر داخل النص نظرة تجعلها تعتبر نفسَها مميَّزة داخل هذا السياق الأصغر. ثم تأتي الشخصية الثانية بوضعها وفعلها لتنسف ذلك المنظور الذي بنت عليه الشخصية الأولى تميُّزَها، وتضع لمسة نهائية على الحدث الوارد في الومضة وتصبُّه في رؤية أوسع تُفْقِدُ الشخصية الأولى تميُّزَها وتقوّضُ منظورَها ووضعَها وتحيلهما إلى نقطةِ ضعفٍ تؤدي بها إلى نهاية مأساوية كما في "عيون" ليوسف الكميتي أو نهاية ساخرة كما في "منظار" ليوسف الكميتي أيضا.